المناهل

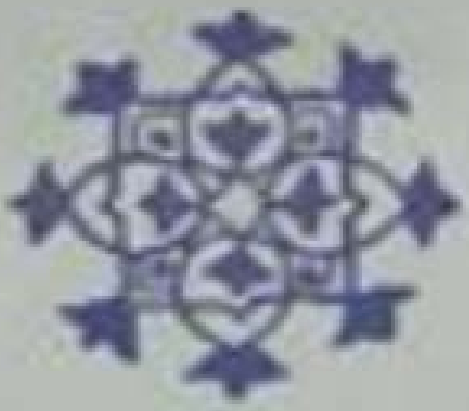

12

المجتمع التقليدي بفاس في مواجهة تحديات العصر

عبد الكريم غلاب

الف ومئتان من السنين تزيد قليلا مرت على تأسيس مدينة فاس . والمدن التي تجاوزت هذا العمر الطويل من حياتها لا شك ان لها ما تحكيه عن تاريخها ، خاصة اذا كانت قد عاشت هذا التاريخ مؤثرة فيه متأثرة به . وما من شك في ان فاس لم تعش بعيدة عن الاحداث ، واحداث المغرب عموما والهامة منها على الاخص ، بل عاشت في قلب الاحداث في غير حياد ، تصنع التاريخ وتؤثر في الانسان وتدفع به الى ان يبني ويسير منطلقا من المدينة التي سمدت لعوادي الزمان هذا التاريخ الطويل .

والحياة المتحركة التي عاشتها فاس معتمدة على نفسها في خلق التقاليد والاعراف والنظم وانماط الحياة من جهة ، متقبلة ما يفد عليها من تقاليد واعراف وانماط حياة من جهة اخرى ، وخاصة ما وفد عليها من مدينتين كان لهما اثر في الحضارة العربية الاسلامية شرقيها وغربيها هما القيروان في تونس وقرطبة في الاندلس ، هذه الحياة المتحركة هي التي جعلت مجتمع فاس مجتمعا متميزا في التاريخ له تراثه وتقاليده وآثاره .

وعراقة هذا التراث وهذه التقاليد واستمدادها من تاريخ المدينة السياسي والاقتصادي والاجتماعي هو الذي جعل هذا التراث يخلد

حتى العصر الحاضر . ولا يمكن أن نغفل عن سبب هام آخر اثر فى بقاء هذا التراث الاجتماعى الهام وهو السبب الجغرافى . فقد وقعت فاس فى وسط المغرب وتصلها بأطراف المغرب الشمالية والجنوبية (ومنها الى الصحراء والسودان) والشرقية والغربية طرق كانت هى سبل الاتصال بين أطراف المغرب ، وسبل الاتصال بين المغرب والعالم الخارجى فى قلب افريقيا وفى شمالها ، ، وسبل الاتصال مع الاندلس عن طريق شمال المغرب . وهناك عامل ثالث أعطى لفاس امتيازا مهما واثر فى نشأة مجتمعها المتميز هو جامع القرويين الذي انشىء بعد نصف قرن من نشأة المدينة تقريبا ، وصاحب تاريخها الحافل متعهدا الحياة العلمية والثقافية والاجتماعية فى المدينة المتحركة .

وعامل رابع اثر فى حياة المدينة هى انها تقوم فى وسط منطقة زراعية خصبة تنتج الحبوب والزيتون والاخشاب . وترتوي من المياه المتدفقة فى الانهار والعيون المنحدرة الى هذه الناحية والى المدينة نفسها من الاطلس المتوسط . وهى المدينة الوحيدة فى المنطقة التى يفد اليها الفلاحون من شمالها عن طريق باب الجيسة ومن شرقها عن طريق باب الفتوح ومن غربها عن طريق باب المحروق . وكلهم يأتى بثمرات جهوده السنوية واليومية من حبوب وزيتون وخضر وفواكه ليتاجر ويقايض لقاء ما تصنعه فاس وما تصدره لهذه المنطقة الواسعة من صناعات ومنتجات وخدمات ومأكولات وادوات فلاحية .

هذه العوامل الاربعة هى التى اوجدت من مدينة فاس مجتمعا متكاملا يطبعه النشاط الفكري والفنى الى جانب النشاط الصناعى والتجاري والعمرانى .

ففى الميدان الفكري سهر جامع القرويين على تكوين المجتمع العلمى للمدينة العتيقة . وكان جامع القرويين جامعة بالمعنى الكامل للجامعة ، والمحيط الذي يتحرك فيه اشعاع ثقافى . لم تقتصر الدروس على جامع القرويين التى كان يشرف عليها مجموعة من العلماء الكبار فى كل فنون المعرفة التى تتصل بالدين والدنيا ، بالمعرفة النظرية والتجريبية ، وانما

كانت الدروس ممتدة فى كل احياء المدينة حتى الاحياء الفقيرة والمتطرفة . فلا يكاد يوجد حى لا يؤمه الطلبة والعلماء ليلقوا ويتلقوا دروسهم فى صباح ومساء . وكانت دروس ما بين العشاءين فى معظم المساجد تعوض على الذين فاتهم ركب التعلم والذين يظلون يومهم فى نشاطهم الاقتصادي فيستفيدون ويرفعون من مستوى حياتهم الفكرية .

وبذلك كان مجتمع فاس مجتمعا علميا ثقافيا حافلا بالمدارس ، وحافلا بالنوادي العلمية التى تمثلها الدروس الليلية التى تلقى فى جامع القرويين وفى المساجد المنبثة هنا وهناك .

وفى الميدان الفنى تكون فى مدينة فاس مجتمع متكامل ايضا . يظهر فى انماط الدور والمنازل والقصور والمدارس التى لم تكن منازل للسكنى او مدارس لسكنى الطلبة ودراستهم فحسب ، ولكنها الى جانب ذلك تمثل الفنون المغربية الاصيلة فى الهندسة المعمارية المتوازية ذات الطابع الخاص بغرفها وقاعاتها وعرصاتها . وفى فن الحفر على الخشب والجبس والتزويق والتزليج والتذهيب وفى وضع نافورات المياه وسقاياتها .

وفى الميدان الصناعى تكون المجتمع المتكامل ايضا . ويبدو ذلك فى الصناعات المختلفة التى نشأت ونمت وازدهرت فى مدينة فاس ، منها الصناعات الضرورية للحياة ولتحويل المأكولات والمستهلكات عموما . وقد استغلت هذه الصناعات مركز المدينة ومياهها والانهار المتدفقة فى شكل شلالات لانشاء المطاحن مثلا التى تدور بقوة الماء ، ومنها صناعات الدباغة والاحذية وكل المنتجات الجلدية وصناعات تحويل الحرير وصباغته والصناعات التطريزية وصناعات تحويل القطع المعدنية والنحاسية وصناعات الحلى الذهبى والفضى ، وصناعة الثياب من الصوف والقطن والحرير المزركش ، وغيرها من الصناعات التى تشغل معظم اليد العاملة وتمكن المدينة من الاكتفاء الذاتى ، فلا تكاد تستورد ، حتى من مدن اخرى ، الا بعض المواد الاولية ، الضرورية التى تفتقد فى المدينة او فى احوازها .

وفى الميدان التجاري تكون المجتمع المتكامل . فقد تبعت التجارة الصناعة وازدهرت فى المدينة اسواق مختصة ما تزال تحمل اسماء هذه

الصناعات ، فمن سوق الحايك الى سوق السباط الى المشاطين والقطانين وسوق النترة . وهكذا كانت الصناعة تتكامل مع التجارة والفلاحة المزدهرة فى النواحى القريبة من فاس فى ايجاد مجتمع اقتصادي معتمد على نفسه بحيث لا يحتاج سكان المدينة الى الخارج — اي الى الاقاليم الاخرى — ليكتمل نشاطهم الاقتصادي .

ولكنهم مع ذلك نشطوا تجاريا فامتدت تجارتهم الى السودان والسينغال ومالى الحالية من قلب افريقيا ، كما امتدت الى اطراف اوروبا وشرقا الى شمال افريقيا . دفع بهم الى هذا النشاط عاملان اثنان :

اولهما : الموقع الجغرافى للمدينة التى وقعت كما قلنا على الطرق الرئيسية من الشمال الى الجنوب ومن الغرب الى الشرق ، فكانت هذه الطرق تسهل المواصلات وتمد العنصر النشيط فى المدينة بوسائل الاتصال مع الخارج : خارج المدينة وخارج القطر كله .

وثانيهما : الانتاج الصناعى الذي كان يزيد عن حاجة المدينة نفسها ، والذي كان يستهوي الزبناء فيسد حاجتهم الى الثياب الصوفية والقطنية والحريرية والى الصناعات الجلدية من السرج الى الاحذية والحقائب التى يحملها الرجال (الشكارة) .

ولعل وفرة الصناعات والعاملين اللذين ذكرناهما أوجدا من سكان فاس عنصرا نشيطا متحركا مهاجرا فى سبيل الكسب والتجارة . وحيثما كانت التجارة والكسب تجد الفاسيين الذين كانوا يرتادون المدن الشهيرة فى افريقيا حتى ضفاف النيجر ، ويجتازون الصحراء فى طريقهم الى الحج ، وكان حجا وحاجة كما يقول المثل المشهور ، ولا شك انه يدل على معناه ، فقد كان الحج وسيلة ايضا للتجارة . وما تزال بعض الاسواق المهمة فى المدن الكبرى التى تقع فى طريق الحج — كمدينة الاسكندرية — تحمل اسم سوق المغاربة . وقد اثروا فى مدن مهمة فى الجزائر مثلا حتى كانت تلمسان بنت فاس كما يقال . وتجارتهم امتدت شمالا حتى اطراف اوروبا عن طريق سبتة ومليلية .

ولم يكن النشاط الاقتصادي او الفكري وحده يطبع الحياة في مدينة فاس . وانما كان ايضا النشاط الفني . ويكفي ان نذكر مثلين اثنين: اولهما يتمثل في فن الموسيقى والانشاد . فقد كانت فاس وما تزال من المراكز الاساسية للموسيقى المغربية الاندلسية . ويؤكد الاستاذ محمد الفاسي، وهو حجة في الموضوع ، انها موسيقى مغربية يطبعها الطابع المغربي في لغتها والحانها وادائها ، واذا كانت بعض الالحان قد انتقلت مع ما انتقل الى المغرب من مظاهر الحضارة الاندلسية ، فان المغرب قد اعطى لهذه الموسيقى اكثر مما اخذ ، فاصبحت مغربية اللغة واللحن والتوقيع والانشاد. مهما يكن فان فاس احتفظت بكثير من اسرار الموسيقى المغربية هذه ، ودخلت في حياتها العادية وربما اليومية فكانت مجتمعاتها البورجوازية والعلمية تخصص فترة من يومها لهذه الموسيقى . العلماء — وهم رجال الدين — كانوا يعتبرونها فنا رفيعا يمارسونه ويستمعون اليه ويشاركون احيانا في ادائه ويحضرون مجالسه . البيوتات الرفيعة كانت تتخذ من الموسيقى فنا منزليا . وكثيرا ما كان الاغنياء يعلمون سرياتهم واماءهم الموسيقى المغربية على نحو ما كان الامر في عهد العباسيين حتى ان السرية التي تتقن الموسيقى الاندلسية يرتفع ثمنها ، ولم تكن خادمة بالمعنى الذي عرف به الخدم في فاس والمغرب جميعه . وانما كانت سرية مفضلة يأتي تفضيلها من الفن الذي تتقنه . ومن السريات يتكون داخل المنزل او القصر جوق من الموسيقيات تحيي لسيد القصر وللعائلة جميعها ليالي فنية ويصحب السيد في تنقلاته وخاصة في أيام الربيع حينما تقضي العائلة فترة مهمة من هذا الفصل في البادية .

وموسيقى الملحون ضرب من الفن الذي ازدهر في فاس وطبع حياتها الفنية بطابع فني شعري موسيقي ولم يكن فنا ترفيهيا فحسب، ولكنه كان يطبع الحياة في فاس وله عشاقه وشعراؤه وحفاظه . ولم يكن فنا شعبيا فحسب تختص به الطبقة الشعبية كما يتبادر الى الذهن ، ولكنه كان فن الطبقة المتوسطة والرفيعة . كثير من العلماء كانوا يساهمون في نظم الملحون . بل ان الملك عبد الحفيظ كان ينظم هذا اللون من الشعر وله ديوان من الشعر الملحون ، وطبعا كان مولعا بسماعه وتشجيعه .

يضاف الى ذلك نوع من الموسيقى الشعبية التى تشبه الانشاد . وتمتاز بها النساء اللائى تنشدنها فى سطوح المنازل وعندما تجتمعن فى الافراح أو النزهات خارج المدينة وتسمى بالعروبى . وتجلى فى انشادها السيدات اللائى يتمتعن بأصوات جميلة . وكثيرا ما كان هذا الغناء ينشد مع حركات الازجوحة . وهو غناء ذو طابع فنى اذا كان لا يصحب بعزف من آلات موسيقية فهو يردد كلمات أو أصواتا وحروفا ذات نغم معين يستعيض بها عن العزف ويقوم على أساس انشاد وشعر قصصى غنائى غزلى . وقد جمع منه الاستاذ محمد الفاسى مجموعة طيبة مع مقدمة تحليلية لاسم هذا الفن « العروبى » وطريقة انشاده .

هذا النوع من الغناء الموسيقى مظهر من مظاهر مساهمة الفن فى استكمال ضروب الحياة التقليدية فى العائلة الفاسية . العائلة التى لم تعش وسط الفنون الحديثة من مسرح وسينما وحفلات موسيقية مسرحية خارج المنزل لم تكن تتخلى عن الحياة ، بل كانت تجلب هذه الفنون الى داخل المنزل . فكان الجوق العائلى من السريات على الاخص ، وكان الغناء فى أوقات المرح والنزهة بين النساء فى العروبى ، وكانت الحياة خارج المنزل كذلك مطعمة بفنون الموسيقى المغربية الاندلسية وموسيقى الملحون، بكل ما يتصل بهذه الموسيقى من فنون الانشاد والشعر .

ولا يمكن أن نذكر الموسيقى دون أن نذكر جانبا آخر منها هو الانشاد الذي يقوم به المسمعون . ومن المعروف ان فاس — كغيرها من مدن المغرب التاريخية — احتضنت هذا الفن فكان المنشدون الذين يرتلون اشعار المدح فى النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، واشعار التصوف والعشق الالهى . وينشد هذا الشعر فى حلقات الذكر وفى الحفلات التى لها طابع دينى ، وحتى فى الحفلات العادية التى يستعيض فيها المحتفلون بالمسمعين عن الموسيقيين . والمسمعون لا يقتصرون على الشعر الدينى فى انشادهم ، ولكنهم كذلك يؤدون الحانا وطبائع من الموسيقى الاندلسية المغربية بدون آلات موسيقية .

ومن فنون التعبير التى ازدهرت فى فاس فن النحت والنقش والتزليج والترويق والتطريز على الخشب والجبس ويقطع الزليج الملونة وعلى

الثياب . فهذا الفن جميعه عاش داخل الدور والقصور والمساجد والاضرحة، ولم يجد المواطنون اى تناقض بين مركز العبادة — المسجد او الضريح — وبين التعبير بهذه الفنون الجميلة . بل انها تعتبر نوعا من التقرب الى الله، فكثيرا ما كان المحسن او المتبرع يخص تبرعه بتزيين مسجد او ضريح بالنقوش الخشبية والجبسية والزليج الملون . اما فى الدور والقصور فقد كان نوعا من التعويض بالفن عن الطبيعة التى حرمت منها المدينة فى دروبها وازقتها الضيقة . ولذلك كثيرا ما كنت تجد تناقضا كبيرا بين خارج المنزل وداخله . خارج المنزل تجد الاسوار المكتئبة والازقة الضيقة المظلمة ، والتى لا يعنى حتى بنظافتها ، بينما تنفتح بوابة الدار على بدائع الفن التى يتقنها المهرة من الصناع ، سواء فى عرصة الدار وساحتها او فى الغرف والبيوت .

ومن المؤكد ان الفن هنا لم يكن للفن وحده ، وانما كان للحياة كذلك. فاذا كانت العائلة — وخاصة النساء — تعيش معظم ايامها داخل المنزل ، فمن الطبيعى أن يكون فى هذا المنزل ما يرفه عن ساكنيه وساكناته ويعوضهن عن الطبيعة الجميلة التى قلما يتاح لهن زيارتها الا فى فصل الربيع ، ولبعض العائلات المترفة التى تملك ارضا او عزبا فى البادية .

وتشارك النساء فى ابداع جانب من هذا الفن الرائع حينما تطرزن بايديهن بعض اثاث البيت . وغالبا ما كانت الفرش تغطى بملاءات مطرزة وكذلك مساند ومخدات الفرش . والتطريز بالحرير فى فاس كان فنا رفيعا دقيقا يعتبر من اجمل ما تبدعه يد الصناع . وكانت الفتيات تتعلمن فى سن مبكرة فن التطريز وتبدأن فى تطريز ملاءات ومخدات ومساند جهازهن حتى اذا حان وقت زفافهن كن — بمساعدة امهاتهن — قد صنعن بايديهن هذا الجزء الفنى الهام منه . ولم يكن المهم منه فقط هو جهاز العروس ولكن كان المهم كذلك صناعة التطريز التى تظل هى صناعة المرأة بعد ان تتزوج .

هذا المجتمع المتكامل اقتصاديا وفكريا وفنيا كان يوجد فى بيئة جغرافية متكاملة وشبه مقفلة . فالمدينة تكاد تكون فريدة بين المدن ، بنيت على جانبى واد عميق يعتبر مسيلا جارفا وليس نهرا ، هو وادي بوخرارب الوادي الجاري بماء لا يصلح للاستعمال . واذا كان المولى ادريس قد انتخب

المجرى النهري لوادي فاس او وادي الزيتون فقد قصد بذلك ان يبعد بالمدينة عن ممكنات الغزو ، وان يوفر لها امكانية الدفاع من جهة ، كما قصد ان يوفر لها امكانية الورد من العيون الكثيرة المتفجرة في كل ركن من اركان المدينة . وهي وسيلة دفاعية كذلك ، لان المهاجمين قد يستطيعون السيطرة على الانهار ، ولكنهم لا يستطيعون السيطرة على العيون المتفجرة داخل المدينة . وقد استعملت العيون دائما كمصدر رئيسي ، وربما وحيد ، لاستعمال سكان المدينة . ولم يكن هؤلاء السكان يحتاجون الى مصادر اخرى للماء الصالح للشرب وحتى الدور التي لم تكن بها عيون أو مجرى من عين كانت تستفيد من جيرانها ، وبالاخص الماء الصالح للاستهلاك المباشر .

المهم ان المدينة كانت مجتمعا شبه مقفل — رغم انها منفتحة على الاقاليم الشمالية والجنوبية . والشرقية والغربية وعلى اوربا وافريقيا — ، فقد احيطت بأبواب من شرقها وجنوبها وغربها وشمالها . وهي منافذ في النهار ، ولكنها تقفل مع المغيب فتعزل المدينة عن العالم . ولو تأخرت بأحد سكانها مسيرته لما تمكن من اقتحام المدينة أو الوصول الى منزله .

ثم ان المنازل المتلاصقة المتداخلة والاسواق التي يختص كل حي تقريبا بواحدة منها ، تزيد السكان اقترابا بعضهم من بعض ، حتى ان المدينة تكاد تصبح حيا وحيدا ، والحي او الدرب يكاد يكون منزلا مشتركا. هذا الطابع العمراني ساهم في تكوين مجتمع المدينة الذي يتعارف اعضاؤه ويتعاونون ويتصاهرون فيصبح المجتمع وكأنه عائلة واحدة كبيرة العدد ، ولكنها متقاربة متصلة الاعضاء متعاونة في شؤون الحياة على قدر ما يكون التعاون بين سكان مدينة كانت في بعض فترات تاريخها من اكبر مدن المغرب ، وخاصة في الفترات التي كان من حظها ان تكون العاصمة السياسية الى جانب زعامتها العلمية والاجتماعية والاقتصادية .

ورغم انها مدينة مقفلة الا انها لم تكن مجتمعا مقفلا . فكثير من سكانها يفدون من خارج المدينة بسبب العلم او العمل ، ولا يكاد يمر جيل حتى يصبحوا من سكانها الاصلاء . ذلك لان المجتمع لم يكن يرفض الغريب

عنه وهو الذي يسمح لابنائه ان يكونوا غرباء بسبب الهجرة التى امتدت حتى قلب افريقيا وشمالها كما قلنا . والمهم فى هذا ان المدينة لم تكن تفقد طابعها المتميز بسبب الهجرة اليها ، وانما كانت تهضم المهاجرين . كما تفعل سائر المدن والاقطار التى تتمتع بشخصية قوية وبخصائص متميزة ، فتعطيهم من طابعها العام وتأخذ من نشاطهم العلمي او الاقتصادي ، لا تضيق بهم ولا يضيقون بها ، وانما تستفيد ويستفيدون من عملية المزج والانصهار .

وقد تكونت من هذا المجتمع المتفتح على العلم والصناعة والتجارة والفنون المختلفة والهجرة منه واليه طبقات اجتماعية من السكان : فيه طبقة الصناع التى يمكن ان نقسمها كذلك الى طبقة عمال الصناعة وارباب العمل . ولكن الملاحظة الاساسية ان هاتين الطبقتين مثلا لا تنتميان الى الطبقة بالمعنى الحديث للطبقية . فارباب العمل لا يمتازون برأس المال — فقد يكون رأس المال ضئيلا تافها — ولكنهم يمتازون بمهارة العمل . ولذلك فصاحب العمل يسمى « معلما » اي انه يعلم طبقة العمال . رأسماله الاساسى الحقيقى هو العمل وليس المال . وهو يعمل بيده ، فهو من جهة عامل ويزيد انه يعلم عماله ، الذين ينقسمون الى صناع ومجرد عمال . فالصانع هو فوق العامل ودون مرتبة المعلم فى مهارة العمل . ولذلك فالعمل يوحد بينهم ، ولا يكاد رأس المال يفرق بينهم الا قليلا .

الطبقية اذن لا تأخذ معناها الرأسمالى وانما هو التمييز فى مهارة العمل .

طبقة اخرى هى طبقة التجار . وهذه كانت متميزة بعض الشيء . فالتجار الكبار اي تجار الجملة يعيشون حياة مترفة على نحو ما كان الترف فى المدينة العاملة وعلى قدر ما كانت التجارة تحقق لهم من ترف فى الاوقات التى تزدهر فيها . وتقاربها او تفوقها احيانا طبقة الفلاحين الذين يملكون اراضى فى ضواحى المدينة القريبة منها والبعيدة . فهؤلاء ايضا كانوا يعيشون فى نوع من الترف ويكونون طبقة رأسمالية محدودة .

وتأتى طبقة العلماء — وهم مع الطلبة يكونون مجتمع المثقفين — وهؤلاء لا يكونون طبقة رأسمالية بطبيعة الحال فقد يكونون من افقر سكان

المدينة لان مجانية العلم تعمهم . فهم لا يتقاضون الا أجورا رمزية من الاوقاف . ويستعينون على حياتهم بالامامة وخطبة الجمعة والعدالة واحيانا بالتجارة او الصناعة او نسخ الكتب والاتجار فيها ، وكلها باستثناء العدالة لم تكن تدر مالا يساعدهم على الحياة . ولكن العلماء كانوا طبقة ممتازة فى مكانتها الاجتماعية لا يضيرها الفقر ولا العمل البسيط الذي تقوم به فهى طبقة محترمة اجتماعيا وفكريا .

من دراسة هذه الطبقات جميعها يمكن أن نقول ان مجتمع المدينة كان متقاربا طبقيا . ولذلك لم يكن هناك صراع طبقى، وانما هناك شعور بالتعاون وحب فيه . ولم تكن هناك احياء متميزة ، للاغنياء حيهم وللفقراء احياؤهم على نحو ما نرى فى المدن الحديثة ، وانما كان الغني يجاور الفقير، والتاجر يجاور الصانع والعامل .

وقد نشأت ولا شك طبقة بورجوازية متوسطة ، تظهر بورجوازيتها فى نوعية العمل الذي كانت تقوم به وهو التجارة او الفلاحة فى غالب الاحيان ، كما تظهر فى المنزل الذي تسكنه ، والذي يتميز من داخله لا من خارجه . كما اشرنا من قبل ، ونوعية الحياة التى تحياها والثروة التى تملكها . ولكن هذه الطبقة غير متميزة عن المجتمع التقليدي فى فاس ، بل هى جزء منه ، لا تنفصل عن الطبقات الاخرى تساهم معها فى حياة المدينة وتشارك فى هموم الناس ، وتشعر بالمسؤولية من خلال المشاكل التى تتعرض لها المدينة .

ومن ثم يتكون مرة اخرى المجتمع المتكامل حتى فى المظهر الطبقى الذي حاولنا تحليله .

ويمكن أن نأتى بمثالين على هذا التكامل فى طبقات المجتمع الفاسى. ويتعلقان معا بقضايا المجتمع الذي تعيشه المدينة وسكانها ، ومساهمة سائر طبقاته فى التضحية المشتركة :

اولهما : يظهر فى الاحتفال بالمواسم أو ذكريات رجال المدينة . وخاصة موسم مولاي ادريس وسيدي على بوغالب . المدينة جميعها تشارك فى الموسم ، بكل طبقاتها : صناع ومعلمين وعمال ، تجار وفلاحين وعلماء ،

رغم أن رجال الصناعة الوطنية او التقليدية يعتبرون هم القائمين على موسم مولاي ادريس مثلا ، والحلاقين يعتبرون هم القائمين على موسم سيدي علي بوغالب . ولكن سكان المدينة كلها يحتفلون بالموسمين والمواسم الاخرى لرجال المدينة وضواحيها . ونفس الشيء يحدث في موسم سلطان الطلبة الذي يعتبر مبدئيا موسما للطلبة ، ولكن المدينة كلها تساهم فيه باعتباره احتفالا بالربيع كذلك .

وثانى المثالين : نجده في اجماع سائر طبقات السكان ، اغنيائهم وفقرائهم ، تجارهم وصناعهم في الحركة الوطنية التي انطلقت قبيل الحماية على يد المثقفين والعلماء الذين وضعوا شروط البيعة للملك عبد الحفيظ ، واشترطوا عليه فيها ان يقاوم نذر الاحتلال وأن يطرد الاجانب من اطراف البلاد التي كانوا قد بدأوا في احتلالها في شرق البلاد وبعض شواطئها الاطلسية ، ثم طالبوه بوضع دستور للبلاد وقدموا له مشروع الدستور سنة 1908 . ثم تجلت هذه الظاهرة الاجتماعية في الثورة التي شنها سكان المدينة وشارك فيها ممثلون من مختلف الطبقات عند الاحتلال ، تلك الثورة التي تعرف بمذبحة فاس والتي قام بها رجال الصناعة على الاخص ، ولكن شاركت فيها بشكل او بآخر سائر الطبقات في المدينة . وتجلت هذه المشاركة بصورة اكثر وضوحا في حوادث الاحتجاج على الظهير البربري سنة 1930 وفي حوادث المطالبة بالاستقلال سنة 1944 . فقد ساهمت المدينة جميعها في هذه الحوادث ولم تتخلف طبقة عن اخرى سواء في العمل الذي كان — الى حد ما — سلميا وهو قراءة اللطيف جماعيا في المساجد . وكان يعتبر تحديا للادارة الفرنسية لانه تعبير جماعي ديني عن الاحتجاج على الظهير البربري او في تقديم عرائض الاحتجاج للادارة الفرنسية او في المظاهرات في الشوارع مما ادى الى اعتقال العديد من مختلف طبقات المدينة كثير منهم كانوا ينتمون الى الطبقة البورجوازية المتوسطة او الى طبقة الاغنياء او العلماء او الطلبة من ابناء الطبقة المتوسطة . وعند الاستشهاد قدمت المدينة ضحايا من ابنائها من مختلف الطبقات .

المهم من هذه الملاحظات ان الطبقية لم تكن تعني في المجتمع التقليدي بفاس المعنى الحديث للطبقية . ومن ثم لم يكن هناك صراع بين

الطبقات المختلفة ، ولا امتياز بل كانت هناك وحدة للمجتمع التقليدي لا يؤثر فيها غنى غنى او علم عالم او مهارة صانع معلم .

هذا هو المجتمع التقليدي الذي ورثته فاس الحديثة .

ويمكن ان نقول ان الحداثة او العصرية بدأت تغزو فاس مع الحماية كما بدأت تغزو سائر انحاء المغرب . ولكن اختلف هذا الغزو — او اختلفت الاستجابة للغزو — فى فاس عنها فى سائر انحاء المغرب . كان من السهل ان ينجح الغزو فى مدينة كالدار البيضاء مثلا التى انتقلت من قرية صغيرة الى اكبر مدينة فى المغرب ، وبذلك تعتبر مدينة جديدة باعتبار ان جذورها فى التاريخ غير عميقة ، وكان من السهل ان ينجح فى الرباط التى تحولت من مدينة محافظة مساهمة باعتدال فى الحياة العامة الى عاصمة المغرب الادارية ، فأثرت الادارة فى تغيير كيانها الى حد ما ، ولكنه لم يكن من السهل ان ينجح فى مدينة كفاس التى ظلت محافظة على مركزها التقليدي . وابتعدت عنها الادارة كما ابتعد عنها التنظيم الاقتصادي الجديد الذي اختار الدار البيضاء كعاصمة له .

وزاد فى صعوبة هذا الغزو ، او فى الاستجابة له ، ان الحكام الجدد ، حكام الحماية ، نقلوا العاصمة من مدينة فاس ، لاسباب لا محل لمناقشتها الآن ، الى مدينة الرباط . ومن ثم ابتعدت المدينة عن العلاقة المباشرة بالتغييرات التى خططت الحماية لادخالها بالمغرب . وبقيت المدينة تعيش حياتها التقليدية فى نوع من الاكتفاء الذاتى . والتغييرات التى بدأت رويدا رويدا تدخل على المدينة لم تكن تربط فاس بمدينة كبرى كالدار البيضاء مثلا ، وانما كانت مكتفية بنفسها فى حدود ما يسمح به الاكتفاء الذاتى .

ويمكن ان نقول كذلك ان هذا الغزو كان له مظهر اقتصادي منذ اليوم الاول ، فرغم ان المغرب كان يستورد مثلا بعض منتجات اوربا قبل الحماية كبعض الثياب مثلا ، الا ان تمكن الاستعمار السياسي والعسكري

من البلاد فتح باب الاستعمار الاقتصادي فاصبح المغرب جميعه يستورد منتجات اوربية وفرنسية بالذات . وبدأ هذا يؤثر على الوضع الاقتصادي صناعي وتجاري فى فاس . واذا كانت الصناعة قد تأثرت بعض الشيء نتيجة الاستيراد فانها استفادت من التصدير الذي انفتحت بعض ابوابه فكانت المنتجات الجلدية ــ وخاصة البلغة ــ تجد طريقها السهل نحو المستعمرات الفرنسية فى افريقيا ، والمنتجات الجلدية الاخرى والنحاسية تجد طريقها الى اوربا وفرنسا بالاخص ، مما أعطى للصناعة التقليدية نفسا جديدا يحميها من الذبول والفناء .

واستمر هذا الغزو فى مظاهره الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، يسير ببطء حتى الحرب العالمية الثانية ويمكن القول بأنها كانت البداية الواضحة لتحديات العصر التى تواجهها فاس بكل مجتمعها التقليدي .

الحرب العالمية اثرت أثرا كبيرا فى ربط فاس بالدار البيضاء . فقد هاجر عدد كبير من سكان فاس الى المدينة الاقتصادية استجابة للنمو والتطور التجاري والصناعى فيها . ولكنهم مع ذلك ظلوا مرتبطين بمدينتهم الاصلية عن طريق العائلة وعن طريق الحنين الى المدينة التى عاشوا فيها جزء من شبابهم ونشاطهم . وفى الدار البيضاء عرفوا نوعا من التمرد على التقاليد التى عاشوا عليها فى مدينتهم ، فبدأ الرجال يغيرون ــ مثلا ــ من ملابسهم وبدأت النساء كذلك تغيرن من ملابسهن الى درجة السفور ، ولكن على استحياء . وبدأوا يغيرون من شكل منازلهم فحل المغنى (الفيلا) محل الدار الكبيرة . وبدأوا يغيرون من عاداتهم فلم تعد العائلة تضم الجد والاب والاولاد مع نسائهم واولادهم فى منزل واحد . وغيروا من وسائل تنقلهم فلم يعودوا يسيرون على أرجلهم او يركبون البغال كلما شق عليهم السير او هدفوا الى مكان بعيد ، وانما حلت الحافلة والسيارة الخاصة محلها فى تنقلاتهم . وكل ذلك كان له اثره على تفكير الفاسيين وعقليتهم .

ولم تستأثر مدينة الدار البيضاء بهذا التغير الذي كان شبه مفاجيء بالنسبة لحياة الفاسيين ، وانما نقلوا هذا التغيير الى المدينة القديمة بكل محاسنه ومبادئه . فلم يلبث سكانها أن تمردوا على الاسوار ، وانتشرت

المدينة شرقا وغربا ، وبدأ السكان يداعبون أطرافها فى باب الخوخة وباب فتوح والمدينة الجديدة بنفس العقلية التى انتقلت اليهم من الدار البيضاء . وبدأوا هم ايضا يغيرون من ملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم المنزلية والحياتية على العموم .

والحرب الثانية اثرت على المدينة من الناحية الاقتصادية تأثيرا مزدوجا . انتعش اقتصادها بصفة محدودة بعد أزمة الحرب . ولكن هذا الانتعاش اصاب فئة محدودة من الذين مدوا عملهم التجاري الى خارج المدينة والذين استطاعوا ان ينتحوا بعض الآفاق الجديدة . . ولكن نهاية الحرب اثرت على الطبقة التى تعمل فى الصناعة تأثيرا خطيرا . فقد انتهى الرواج المحدود الذي عرفته هذه الطبقة نتيجة انعدام الواردات اثناء الحرب ، واصبحت الصناعة والصناع مهددين بالافلاس نتيجة انفتاح الابواب للصناعات الحديثة : الثياب والاحذية والصناعات المعدنية والنحاسية .

وكان استقلال المغرب فرصة اخرى للتطور الحياتى فى المدينة العتيقة . فمما لا شك فيه أن الاستقلال انعش الحياة الاقتصادية فى المغرب، واصابت فاس حظها من هذا الانتعاش ، ولو ان الانتعاش كما هو واضح اصاب فئة محدودة من سكانها ، الفئة التى استفادت — وعرفت كيف تستفيد — من الحرية التى مكنت المواطنين المغاربة من اقتحام بعض القطاعات التى كانت حكرا على الاجانب . وهذا الانتعاش الاقتصادي اثر بصورة واضحة على الحياة فى المدينة فهب سكان داخل السور الى ما وراء السور . وتوزعت العائلات الى اقسام صغيرة . وبدأت الحاجة تفرض نوع الحياة فحلت الشقة محل الدار ، وبدأت فاس تشهد بناء العمارات التى تتوفر على عدة شقق تسكنها عائلات مختلفة بدلا من الدار الكبيرة التى تسكنها مختلف فروع العائلة الواحدة . والشقة تفرض نوعا من الحياة يختلف عن الحياة التقليدية التى عرفتها المدينة طوال حياتها .

تغير وجه المدينة ، فى قسمها الجديد ، عن وجهها فى قسمها القديم ، واصبحت فاس تكون مدينتين مختلفتين فى الشكل وفى البناء وفى نوع الحياة.

ولا شك ان هذا التغير يؤثر فى العقلية التى يعيش بها السكان فى المدينة ، ولا شك أن ذلك يخلق نوعا من التنافس او نوعا من التطلع لدى سكان المدينة القديمة ، فمن لم يستطع منهم أن ينتقل الى الدار البيضاء او الى الرباط ، ان كان من طبقة الموظفين ، سعى لان ينتقل الى المدينة الجديدة ان كان دخله المادي يساعده على ذلك .

وهكذا بدأ نوع من التحول على مجتمع المدينة نتيجة هذا التحول للسكان ، وبالطبع لم تهجر المدينة القديمة ، وانما فتحت ابوابها ، على عادتها دائما ، للمهاجرين الذين يفدون من البادية . ومن المؤسف أن مستواهم المادي ، وربما الحضاري لا يساعدهم على الاحتفاظ بشكل الدور فى المدينة القديمة او على تطوير المتهدم منها الى دور جديدة بالطابع المغربى الفاسى القديم . فبدأت الدور القديمة تقسم الى غرف ومنازل بحسب العائلات الكثيرة التى تسكنها . واذا كان هذا ليس غريبا على المدينة ، فقد كان الجيران يسكنون احدى هذه الدور الصغيرة التى تكون الغالبية فى كل درب وحى ، وكانوا يفصلون الغرف بساتر عادي من ازار ونحوه . وقد تضم الدار عددا من الجيران بحسب الغرف التى تتكون منها ، ولكن الدور الكبيرة الآن تشوه بشكل يفصلها عن طابعها المغربى الفاسى .

هذا التحول فى المدينة وفى عقلية السكان وفى مستواهم الاقتصادي والاجتماعى قد يؤثر على الوحدة الطبقية التى عرفتها المدينة فى سابق عهودها . خاصة وان الفروق الاجتماعية ظهرت بوضوح بين سكان المدينة القديمة التى احتفظت فيما يظهر بسكانها الفقراء من الصناع والمتعلمين ، وسكان المدينة الجديدة التى تسكنها طبقة الموسرين من كبار التجار والموظفين وكبار الفلاحين ثم الدواوير التى تحيط بالمدينة من الدكارات والمقطع والجنانات وصهريج كناوة وحى الاستقلال التى يتكون سكانها فى الغالب من العمال والفقراء والعاطلين .

معنى هذا ان هناك تحولا مهما فى المجتمع الفاسى . المجتمع المتكامل المتعاون أصبح مجتمعا انفصاليا يسير فى طريق الصراع والتدابر . قد يكون هذا نتيجة حتمية للتطور الاقتصادي . فلا يمكن أن تشذ مدينة كفاس عن سائر

المجتمع المغربي ، بل عن المجتمعات الاخرى التي تتحول من المجتمع المنقفل الى المجتمع المتفتح ، ومن المجتمع الفلاحي او التجاري البسيط الى المجتمع الصناعي الذي يبدو فيه الفرق واضحا بين صاحب العمل والعامل . وحينما دخلت الصناعة العصرية المدينة لا بد ان تتحدى المجتمع التقليدي فتخرجه عن مسيرته الرتيبة البطيئة الى مسيرة متفعلة يطبعها التنافس والحدة والصراع ، ويفرق بين طبقاتها المسكن والحي ونوع الحياة ، بمقدار ما يفرق الدخل وطبيعة العمل .

مهما يكن فان مجتمعا جديدا يولد في فاس يختلف تماما عن المجتمع الذي كان فيه الجار يعرف جاره ويحبه ويتعاون معه ويعيره منزله في فرح او ترح ويصبحه ويمسيه . المجتمع الجديد لا يختلف عن المجتمع الجديد في اية مدينة عصرية . يسكن الجيران مثلا في عمارة واحدة سنوات ذوات العدد فلا يكاد احدهم يعرف الآخر ، ولا يكادان يتبادلان كلمة تحية فاحرى ان يتعاونا او يتبادلا المنفعة ، ومن ثم يحل التنافس الحاد محل المحبة الاخوية .

وهذا احد التحديات الكبرى التي تواجه المجتمع التقليدي في فاس .

هذا التحدي يؤدي الى تحد آخر لكثير من مظاهر الحضارة المعمارية والفنية التي عرفتها فاس واشرنا اليها فيما سبق. مثلا : الشقة لا تحتمل الفن المعماري الفاسي . فهي عبارة عن علبة للنوم تقضي فيها العائلة ليلتها ، ولكنها لا تحتمل لتقضي فيها يومها . ومن ثم فالشقة للنوم لا للحياة . ولا يمكن أن يزدهر فيها الفن المعماري ولا فنون النقش والتزويق والتزليج . وليس فيها الساحة الكبيرة التي قد تغني العائلة عن الشارع ولا نافورات المياه من خصص وسقايات . ثم هي لا تساعد على نوع الفرش الذي كان مزدهرا في فاس بكل ما يطبعه من ترف ومن فن التطريز في الملاءات ولا على تعليق الستائر التي كانت في الغالب مطرزة هي الاخرى بطريقة فنية .

والشقة لا تساعد على اقامة الحفلات التي تصدح فيها الموسيقى المغربية الاندلسية او الملحون . فهذه الموسيقى كانت تتفق مع سعة صحن

الدار الذي يوزع الاصوات وانغام الآلات الموسيقية . واذا كان اصحاب الشقق الصغيرة الآن يستعيرون منازل كبيرة لاقامة حفلاتهم ، فان هذه المرحلة الانتقالية ستمر ، وسينتهي الامر بغلبة حضارة الشقة على حضارة الدار بكل ما يحمله هذا التحدي الحضاري من القضاء على كل مظاهر الحضارة القديمة : الفنية منها والمعمارية والموسيقية ، وعلى مجتمع العائلة التي كانت تتعايش مهما امتدت فروعها في الدار الكبيرة، بل على مجتمع العائلة الصغيرة. فان الشقة توحي بترك المنزل في الوقت الثالث الى السينما او النادي حينما تتكون النوادي ، وقد كانت الدار الكبيرة توفر اجتماع العائلة بأطفالها وشبابها فتقوم مقام النادي . اما حضارة الشقة فانها توحي للزوجين وللشباب بمغادرة المنزل ويبقى الاطفال الذين تضطرهم ظروف العمل للمدرسة وحيدين في الشقة فلا تتاح لهم الفرصة للاجتماع بالعائلة الا نادرا .

وهذا من التحديات الكبيرة التي تواجه المجتمع التقليدي الفاسي .

ولا شك ان هذا التحدي سيبلغ مداه مع الزمن حتى يؤدي الى اندثار الفن المعماري القديم وقد يؤدي الى اندثار المدينة التي تتحلق حول جامع القرويين وضريح مولاي ادريس بعد ان تهاجر الى المدينة الجديدة واطراف المدينة الاخرى .

لا احد يستطيع ان يجزم بأن المدينة القديمة ستجدد نفسها مع الزمن . فالفن المعماري القديم لا اظنه يستطيع ان يصمد لفن الاسمنت وعلب النوم . والدار الكبيرة قد تختفي مع الزمن لتصبح مجموعة منازل صغيرة اذا ما سمحت ادارة الفنون الجميلة بتحويل الدور الى شقق . وقد ينتهي الامر الى خراب المدينة القديمة ، بكل ما يتبعها من وسائل الحياة التي تنتجها الصناعة التقليدية من ادوات جلدية ونحاسية . وطريقة الحياة التي تطبعها جلسة شرب الشاي مثلا او الجلوس على مائدة الاكل المستديرة التي تتحلق حولها العائلة ، قد تتحول الى طريقة الشاي الذي يحضر في المطبخ ويقدم في كؤوس منفردة . والمجتمع البورجوازي المتوسط الذي تطبعه كثير من التقاليد العتيقة قد يختفي ليخلفه مجتمع بورجوازي

كبير او اقطاعـــى . والى جانبه المجتمع البروليتاري المكافح فى سبيل لقمة الخبز ، ولا شىء غير لقمة الخبز . وقد بدأ هذا يتجلى فى حـياة فاس . والبواكير الاولى تؤكد النهاية المحتومـــة .

هناك تحد آخر يهاجم المدينة العتيقة هو التصميم الذي وضع للمدينة بتغطية وادي بوخرارب ودخول السيارة الى قلب المدينة ، هذا التخطيط ، رغم اهميته الصحية ، سيغير معالم المدينة ، قد يصلها ــ عن طريق المواصلات السريعة ــ بالمدينة الجديدة وبالاحياء التى نشأت فى اطرافها ، ولكنه سيقضـــى على جزء من طابعها .وقد يجعلها من بين المدن التى تبحث عن نظافة البيئة من الطوث الناتج عن احتراق النفط ، ولكن المشكل ليس هذا ، وانما هو التغير الذي يحدث فى المجتمع التقليدي الذي ستقتحمه الآلة الكهربائية البترولية ، وهى عادة تتبع السيارة . ومن المنتظر ــ مثلا ــ ان تتحول الرحى الحجرية التقليدية التى كانت تغذي مدينة فاس جميعها الى رحى آلية تدور بمحرك كهربى بعد ان يختفى النهر الذي كان يحركها بالقوة المائية الدائمة . ومن المنتظر ان تختفـــى صناعة الحياكة فى الدراز التى كان يدير المنول فيها المعلم او الصانع بحركة قدمه ويدفع المكوك او النزق بقوة يديه الى آلة حديثة يحركها محرك كهربى ، ومن المنتظر ان تختفى صناعة الادوات النحاسية والمعدنية التى كان العامل فيها يبذل كل خبرته الفنية فى تفصيلها ونقشها بيديه لتحل محلها صناعة آلية تحل فيها الآلة محل اليد ، والصناعة الآلية محل الصناعة التقليدية . ومن المنتظـــر كذلك ان تختفى دار الدبغ ليحل محلها معمل حديث لدباغة الجلود كما لعله قد بدأ بالفعل . وهكذا يمكـــن ان تساهم السيارة التـــي وصلـــت الى حى الرصيف ، وقد تصل غدا الى بين المدن ، فى اختفاء المجتمع التقليدي الفاسى ليحل محله مجتمع آخر ، مجتمع الآلة التى تدار بالكهربـــاء او البـــتـــرول .

ومن شأن هذه الصناعة التى تختصر الوقت ، وربما التكاليـــف ايضا ، أن تقضـــى على الصناعات الفنية الجميلة المتقنة التى عرفـــت بها فاس فى عهودها الزاهرة . والتحول فى الصناعة يحول العقلية فيحـــل الاحتفال للمنفعة محل الاحتفال للفن ، وتحل السرعة محل البطء والمتعة

بالزمن ، وينصرف العامل فى الزليج او النقش على الجبس او الخشب او القطعة النحاسية والمعدنية مثلا ، الى العمل فى الآلة الاسرع انتاجا والاكثر مردودا .

وحينما تتغير العقلية بنظرتها الى العمل الاسرع والاكثر مردودا يفتقد الانسان حاسة الفن فى عمله ، وحاسة التأمل والرغبة فى الابداع . الآلة تحول الانسان من مبدع الى منتج او مساعد الآلة التى تنتج ، وتفقد العامل تلك العلاقة المتازة بين الانسان والزمن . الآلة لا تسمح للعامل بالتأمل لانها تفقده الصلة بينه كمبدع وبين انتاجه الذي لا يكاد يراه بعينيه احيانا اذ ان القطعة المنتجة تدور فى الآلة لتطرح بعيدا عنه ، وقد كان تعامله كصانع مبدع مع القطعة ينحتها ويتأملها ويفكر فى عمله ويناقش نفسه فى ابداعه ، فاصبح تعامله مع الآلة لا مع الانتاج المبدع . ان الآلة تفقد الانسان هذه الحاسة . وبذلك يصبح جزء من الآلة كمسمار فى دولاب، لا يبدع ولا يترك له الزمن الكافى لتأمل ابداعه ، ولكنه يعمل ليلحق دوران الآلة التى تحركها طاقة اخرى غير الانسان . ومن ثم ينتقل الى عالم آخر يحس فيه بالاغتراب عن العالم الذي عاش فيه مبدعا متأملا باحثا عن المزيد من الابداع الفنى والحضاري .

وهذا هو التحدي الكبير الذي يهدد المجتمع فى العمق الحضاري الذي كانت مدينة فاس احدى معالمه المنتجة والمستهلكة والمتمتعة بقيمه الفنية والحضارية .

سؤالان يطرحان نفسيهما بحدة :

اولهما : هل من الضروري ان نحافظ على هذه القيم الحضارية، وهى فى جملتها فنية تقليدية لا تسير مع تطور العصر ، ولا تستجيب لحاجة الحضارة الحديثة ، وقد تجعل من المدينة متحفا صالحا للزيارة لا للحياة المتحركة النشيطة ؟ هل نبحث من وراء الحياة عن الخبز : عن التطور الاقتصادي والتنمية الحياتية ، ام نبحث عن الفن وعن الفن التقليدي بصفة خاصة ؟

تختلف نظرة الباحثين الاجتماعيين فى الاجابة عن هذا السؤال باختلاف ثقافتهم ومثلهم فى الحياة وممارستهم اليومية . فما من شك فى اننا سنجد من بين هؤلاء الباحثين من يبادر بالاعلان صراحة باننا يجب ان نساير العصر ، والا نجعل من هذه التحديات بالنسبة لمدينة فاس تحديا عنيفا وعميقا ، لان الحياة تتطلب ان نسير مع تيارها فى مواجهة التيار .

ومدينة فاس لا ينبغى ان تظل متحفا للتاريخ الا اذا اريد لها ان تتخلى عن رسالتها التاريخية ، بل يجب ان تتطور كسائر المدن المغربية الاخرى . واذا لم تتطور فهى بين امرين : اما ان تندثر ، واما ان يجرفها تيار التطور بالرغم عنها . ومن الاحسن لها ان تبحث عن سبيل للتطور ، بعد ان اريد لها ان تعزل وتنعزل ، فسلب منها دورها الاقتصادي والاداري وبدا يسلب منها دورها العلمى لولا الجامعة الحديثة التى انشئت فيها . ولذلك يجب ان تتخلى عن المثل الحضارية القديمة لانها لا تساعد على اكل الخبز ، وان ساعدت على ارضاء النزعات الفنية والاحساس بالجمال بتعبيراته القديمة .

مثل هذا الجواب يصدر عن الباحثين العمليين المتطلعين الى المنفعة السائرين فى طريق الانغمار مع المعاصرة والحداثة . ومثل هؤلاء كثيرون من سكان فاس وابنائها الذين يطمحون الى « الافضل » كما يتصورون بفلسفتهم هذا « الافضل » .

ويذكرنى موقفهم هذا بقصة طريفة شاهدتها بنفسى ذات يوم . فقد دعيت لحضور افتتاح فندق هيلتون بباريس ، وكان من جملة برنامج حفلات الافتتاح زيارة متحف اللوفر . وذهبت الوفود جميعها للمتحف العالمى الكبير ، وكان على راس هذه الوفود السيد هيلتون نفسه — وهو الذي عمت شهرته آفاق العالم بمقدار شهرة سلسلة الفنادق المنتشرة فى مختلف انحاء الدنيا التى تتعامل مع الغرب — وجدنا فى بوابة المتحف احدى الرائدات العالمات بخبايا المتحف وآثاره الفنية الفريدة فى العالم . وبدات جولتنا بالاطلاع على بعض التماثيل المنصوبة فى البوابة الكبيرة ، ولم تكد الرائدة تبدا فى شرحها العلمى لتطور فنون النحت على

مر العصور حتى لاحظنا جميعا ان السيد هيلتون يتسلل بشكل ملحوظ من بيننا ويتقل راجعا من حيث اتى تاركا الرائدة التى كانت توجه عنايتها الى المثري الكبير القادم من العالم الجديد فى دهشة مروعة ، لعلها دهشة الخيبة من الاهمال الذي واجهها به السيد هيلتون . أما هو فلعله آثر ان يصرف وقته فى التفكير فى فندق جديد ينشئه فى احدى العواصم الكبرى بدلا من ان يصرف ساعات من عمره فى الحياة مع الاحجار والتماثيل

بمثل هذه العقلية يواجه هؤلاء الباحثون التحديات التى تواجه مدينة فاس التى تعتبر جميعا متحفا كبيرا لم يلتقط آثاره من هنا وهناك ، وانما وجدت هذه الآثار وابدعت بيد ابناء فاس وفى المدينة نفسها فى قصورها ومدارسها ومساجدها وبناءاتها واسواقها وطبيعتها وموقعها الجغرافى وتاريخها الحافل .

وفى مواجهة هؤلاء الباحثين ذوي النزعة المنفعية نجد باحثين آخرين يؤكدون ان الحياة ليست بحثا عن الخبز والزبد فحسب ، ولكنها معايشة للتاريخ والحضارة وتمتع بالقيم الانسانية التى ساهم الانسان فى ابداعها بمواهبه وعلمه ونشاطه بمقدار ما ساهمت الطبيعة والتاريخ والموقع الجغرافى . واذا كان المبدعون قد انفقوا حياتهم فى تقديم فاس التاريخ لفاس الحاضر ، فليس من مهمة المعاصرين ان يساهموا فى واد هذا التاريخ والقضاء على كل هذه الفنون والتقاليد لان جذواها المنفعى يقل عن جذوى حضارة السيارة والطائرة والمعمل الهربى ، بل ان مهمتهم الاولى هى تنمية هذه الحضارة بكل تقاليدها وقيمها الفنية والعمرانية .

لهذا فرسالتنا فى المحافظة على آثار فاس وتقاليدها رسالة علمية حضارية لا تقل عن دراستنا للتاريخ والآثار والفنون الجميلة والحضارات العتيقة ، بل انها رسالة اهم لانها احياء لكل هذه القيم بالعمل لا بالدراسة وبالمعايشة لا بالبحث النظري .

ويمثل هذه النظرية العميقة لقيم الحياة رجل آخر من رجال الاعمال الامريكيين ومن كبار الاغنياء هو مستر فوربيس الذي يصدر مجلة

باسمه فى أمريكا وفى كثير من عواصم العالم تمثل رجال الاعمال وتساهم فى التنمية الصناعية والاقتصادية . ولكنه رغم ثرائه الفاحش يعيش حياة مزدوجة مع الفنون والآثار الجميلة . وبلغ به حبه لجمال الطبيعة وابداعات الانسان ان اشترى قصر المندوب فى طنجة وجعل منه متحفا صغيرا يمثل هواياته الفنية جمع فيه كثيرا من الآثار التى اقتناها فى رحلاته حول العالم . ومن حين لآخر يفر من جحيم حياة المنفعة ويركب طائرته الخاصة الى طنجة ليقضى اياما فى متحفه الجميل بين آثار حضارة العالم القديم .

وما من شك فى ان فاس هبة من هبات تاريخ المغرب الذي صنعه شعبنا . ونحن جديرون الا ننتكر لهذه الهبة ، بل جديرون أن نعايشها وننميها ونحياها فى كل ابعادها الحضارية .

على ان هذه الحضارة ليست تاريخا ميتا عديم الجدوى . ذلك ان عبقرية الانسان المغربي مزجت بين الفن والمنفعة . فلم يمت سكان فاس جوعا وهم يصنعون بتطع الزليج مثلا اروع لوحات الفن فى تناسق قطعها والوانها وصورها . وانما كان الفن يحيى مع المنفعة المادية . وكان كل انتاجهم مطبوعا بطابع الفن للحياة لا الفن للفن .

والسؤال الثانى الذي يفرض نفسه يمكن ان يلقيه المتفائلون المتشبثون بالقيم الحضارية لفاس الراغبون فى مواجهة تحديات العصر . ويقول السؤال : كيف تواجه فاس التحديات التى تريد ان تعزلها او تجعل منها مدينة متنكرة لكل قيمها سائرة فى طريق العصرنة المستجيبة لكل التحديات التى وصفنا ؟

ونعتقد ان مهمة الانقاذ تقع على المغرب كله بحكومته وشعبه . ففاس لم تكن ولن تكون لنفسها ، وانما هى مدينة المغرب ، بل مدينة الحضارة الاسلامية العربية ، ان لم نقل انها مدينة الحضارة الانسانية . وبهذا المفهوم يتحمل العالم الاسلامى والعربى مسؤولية المحافظة على تراث فاس ، وتتحمل الهيآت الدولية الثقافية مسؤولية هذه المحافظة .

ولذلك لا غرابة اذا راينا منظمة اليونيسكو تهتم بآثار فاس وتسعى للمحافظة عليها .

وفى هذا الاطار يمكن ان نقترح ما يلى :

ـ الاهتمام بالمدينة كمدينة والمحافظة على تراثها من الانهيار والتهدم.

ـ منع تقسيم الدور الكبيرة القديمة وترميم المتهدم منها .

ـ احياء الفنون الجميلة ، وفى مقدمتها التعبير بالنقش على الخشب والجبس والتعبير بالصباغة فى النقوش الجميلة عن طريق الدراسات والمعاهد حتى لا تبقى هذه الفنون معتبرة من الصناعة التقليدية .

ـ الاحتفاظ بالفن المعماري لفاس باعتباره يمثل حضارة قائمة بذاتها؟

ـ انشاء كرسى جامعى للحضارة والآثار بفاس فى جامعة محمد بن عبد الله .

ـ التوعية الثقافية بالفنون والآثار والحضارة بفاس على صعيد المغرب كله ثم من خلال المنظمات الدولية التى تهتم بالمحافظة على الآثار والفنون والصناعات الفنية كمنظمة اليونيسكو والمنظمة العربية للعلوم والفنون التابعة للجامعة العربية .

حول هذه الخطوط العريضة لانقاذ الحضارة التى ساهمت بها فاس فى حضارة المغرب، نرجو ان ينبثق الوعى بالمسؤولية وخاصة عند المثقفين الذين لا يكتفون باجترار التاريخ والتحدث عن الماضي العريق ، بل يهمهم ان يبنوا مستقبل حضارتنا على اساس من الماضى حتى تستمر السلسلة الحضارية للمغرب بطابعها الفريد وخصوصياتها المتميزة.

الرباط — عبد الكريم غلاب